المحاضرة (2): اللّسانيات العربيّة: النّشأة:

تمهيد: تُعَدُّ الدّراسات اللّغويّة الّتي عرفتها الحضارة العربيّة خلال المراحل الأولى من تاريخها من أعرق الدّراسات الّتي أسهمت إلى جانب الدّراسات اللّغويّة للحضارات القديمة: كالهنديّة، واليونانيّة والرّومانيّة، في تطوّر البحث اللّسانيّ عامّة. ويعود تاريخها إلى القرن الثّامن للميلاد (ق08م) الموافق للقرن الثّاني للهجرة (ق02هـ) مع أبي الأسود الدّؤلي (69هـ) وتلامذته، من أمثال نصر بن عاصم اللّيثي (89هـ) وعنبسة الفيل (100هـ) وعبد الرّحمن بن هرمز (117هـ) ويحيى بن يعمر (129هـ) وتلامذة تلامذته، من أمثال أبي عمرو بن العلاء (154هـ) وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ (117هـ) وعيسى بن عمر الثّقفيّ (149هـ) والخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ) وأبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المُلقَّب بسيبويه (180هـ) وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (189هـ) وأبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (207هـ) وغيرهم ممّن أسّسوا الدّراسات اللّغويّة العربيّة الأولى لمن جاء بعدهم من القُدامى والمُحْدَثين:[1]

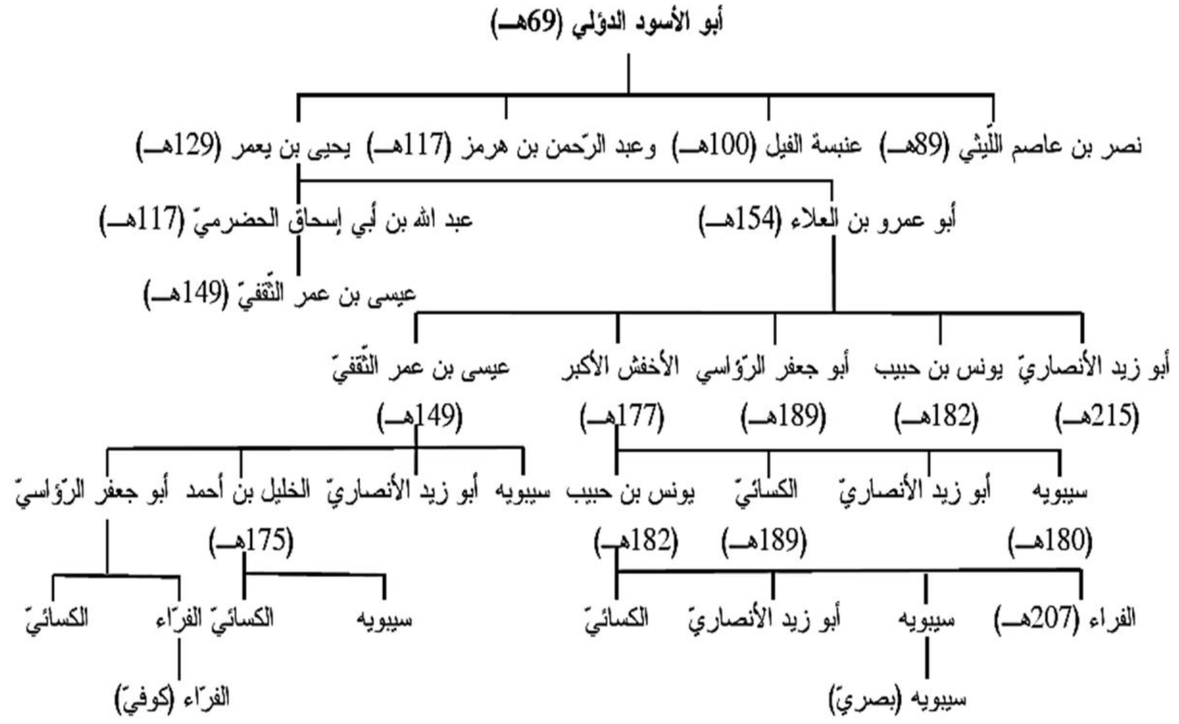

وقد ظهرت الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة متأخّرة، مقارنة بغيرها من الدّراسات اللّغويّة للحضارات القديمة، كالهنديّة، واليونانيّة، والرّومانيّة؛ "إذ لم يكن البحث اللّغويّ عند العرب من الدّراسات

[1]- أحمد أمين، ضحى الإسلام، دط. القاهرة: 1998، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، 284.

المبكرة الّتي خفوا لها سراعًا؛ لأنّهم وجّهوا عنايتهم أوّلا إلى دراسة العلوم الشّرعيّة، وحين فرغوا منها أو كادوا، اتجهوا إلى دراسة العلوم الأخرى. وفي هذا يقول السّيّوطي: إنّه منذ منتصف القرن الثّاني الهجريّ، بدأ علماء المسلمين يدوّنون الحديث النّبويّ، ويؤلّفون في الفقه الإسلاميّ، والتّفسير القرآنيّ. وبعد أنْ تمّ تدوين هذه العلوم اتّجه العلماء نحو تدوين العلوم غير الشّرعيّة، ومن بينها اللّغة والنّحو. كما يقول أحمد أمين: أكثر اللّغة كتبت في العصر العباسيّ الأوّل لا قبله."[1] وبهذا يمكن ردّ هذا التّأخر في نشأة الدّراسات اللّغويّة عند العرب، مقارنة بغيرهم من الأمم إلى الأسباب الآتية:

- طبيعة الحياة الاجتماعيّة للعرب التي تعتمد على الحلّ والتّرحال، ولا تألف الاستقرار؛
- غياب الحافز الدّينيّ الّذي ظهر عند الأمم في الحضارات الأخرى؛
- انشغال العرب بعد الإسلام بالفتوحات الإسلاميّة؛
- انشغال العلماء المسلمين في بداية التّأليف بالعلوم الشّرعيّة قبل العلوم اللّغويّة.

ومن جملة ما توصّلت إليه الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة، خلال هذه المرحلة الأولى من تاريخها، ما يلي:

- تأسيس النّحو العربيّ؛
- وضع نقط الإعراب؛
- وضع نقط الإعجام؛
- اكتشاف الحركات الإعرابيّة (نظام التّشكيل).

أوّلا- تأسيس النّحو العربيّ: يُعَدُّ النّحو العربيّ أوّل العلوم اللّغويّة التي تفطّن إليها العرب في دراستهم للّغة خلال هذه المرحلة؛ فقد دعتهم الحاجة إلى حماية اللّغة العربيّة -باعتبارها لغة القرآن الكريم- من اللّحن، إلى تأسيس علم النّحو العربيّ الذي اختلفت الرّوايات حول واضعه، وسبب وضعه وأوّل ما وُضِع منه؛ لاعتماد الرّوايات الأولى على المشّافهة لا التّدوين. وتُرجِّح أغلب الرّوايات أنّ واضع علم النّحو العربيّ هو أبو الأسود الدّؤليّ، بطلب من الإمام عليّ رضي الله عنه، فقد جاء في (سبب وضع علم العربيَّة) لجلال الدّين السّيوطيّ (911هـ) "قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق الزجاجي النَّحْوِيّ فِي أَمَالِيهِ: حَدثنَا أبو جَعْفَر مُحَمَّد بن رستم الطَّبَرِيّ، قَالَ: حَدثنَا أبو حَاتِم السّجسْتَانِي، حَدثنِي يَعْقُوب بن إِسْحَاق الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا سعيد بن سلم الْبَاهِلِيّ، حَدثنَا أبي عَن جدي عَن أبي الأسود الدّؤَلِي رَضِي الله عَنهُ، قَالَ: دخلت على أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ فرأيته مطرقا

[1]- أحمد مختار عبد الحميد عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ط8. بيروت: 2003، عالم الكتب، ص79.

متفكّرا، فَقلتُ فيمَ تفكر يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ، قَالَ: إِنِّي سَمِعت ببلدكم هَذَا لحنا، فَأَردْتُ أَنْ أصنع كتابا فِي أصُول الْعَرَبيَّة، فَقُلت إِنْ فعلت هَذَا أَحْيَيْتَنَا، وَبقيت فِينَا هَذِه اللُّغَة، ثمَّ أَتَيْته بعد ثَلاث فَأَلْقى إِلَيّ صحيفَة فِيهَا: بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، الْكَلَام كُله اسْم، وَفعل، وحرف، فالاسم مَا أنبأ عَن الْمُسَمَّى، وَالفعْل مَا أنبأ عَن حَركَة الْمُسَمَّى، والحرف ما أنبأ عَن معنى لَيْسَ باسم وَلا فعل، ثمَّ قَالَ لي تتبَّعه وزد فِيهِ مَا وَقع لَك. وَاعْلَم يَا أَبَا الأسود أَن الأَسْمَاء ثَلاثَة: ظَاهر، ومضمر، وَشَيْء لَيْسَ بِظَاهِر وَلا مُضْمر، وَإِنَّمَا يتفاضل الْعلمَاء فِي معرفَة مَا لَيْسَ بِظَاهِر وَلا مُضْمر. قَالَ أَبُو الأسود: فَجمعت مِنْهُ أَشْيَاء وعرضتها عَلَيْهِ، فَكَانَ من ذَلِك حُرُوف النّصب، فَذكرت مِنْهَا: إِن، وَأَنّ، وليت، وَلَعَلَّ، وَكَأَن، وَلم أذكر لَكِن، فَقَالَ لي: لم تركتهَا، فَقُلْت: لم أحسبها مِنْهَا، فَقَالَ: بل هِيَ مِنْهَا فزدها فِيهَا."[1]

وجاء في رواية أخرى أنّ سبب وضع أبي الأسود الدّؤليّ للنّحو، هو أنّه سمع ابنته تلحن في حضرته، فقد "قَالَ أَبُو الفرج الْأَصْبَهَانِيّ رَحمَه الله فِي كتاب الأغاني، أخبرنَا أَبُو جَعْفَر بن رستم الطَّبَرِيّ النَّحْوِيّ، عَن أبي عُثْمَان الْمَازِني، عَن أبي عمر الْجرْمِي، عَن أبي الْحسن الأَخْفَش، عَن سِيبَوَيْهٍ عَن الْخَلِيل بن أَحْمد، عَن عِيسَى بن عمر، عَن عبد الله بن أبي إِسْحَاق الْحَضْرَمِيّ، عَن عَنْبَسَة الفيل وَمَيْمُون الأقرن، عَن يحيى بن يعمر اللَّيْثِيّ، أَنّ أبا الأسود الدؤَلِيّ رَضِي الله عَنهُ، دخل إِلَى ابْنَته بِالْبَصْرَةِ فَقَالَت لَهُ: يَا أَبَت مَا أَشدُّ الْحرِّ، رفعت أَشدُّ فظنها تسأله وتستفهم مِنْهُ؛ أَي زمَان الْحر أَشد، فَقَالَ لَهَا: شهر ناجر يُرِيد شهر صفر، الْجَاهِلِيَّة كَانَت تسمي شهور السّنة بِهَذِهِ الْأَسْمَاء، فَقَالَت: يَا أَبَت إِنَّمَا أَخْبَرتك وَلم أَسالك فَأتى أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب كرم الله وَجهه، فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ ذهبت لُغَة الْعَرَب لما خالطت الْعَجم، وأُوشِك إِنْ تطاول عَلَيْهَا زمَان أَن تضمحل، فَقَالَ لَهُ وَمَا ذَلِك فَأَخْبرهُ خبر ابْنَته، فَأمره فَاشْترى صحفا بدرهم، وأملى عَلَيْهِ الْكَلَام كُله لا يخرج عَن اسْم وَفعل وحرف جَاءَ لِمَعْنى، وَهَذَا القَوْل أول كتاب سِيبَوَيْهٍ، ثمَّ رسم أصُول النَّحْو كُلّهَا، فنقلها النّحويون وفرّعوها."[2]

وفيما ذكره ابن الأنباري عن سبب وضع أبي الأسود للنّحو، أنّه: "يُرْوَى أيضا أنّ أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السَّماءِ؟ فقال لها: نجومها، فقالت: إنّي لم أُرِدْ هذا، وإنّما تعجّبت من حسنها. فقال لها: إذن فقولي: ما أحسنَ السَّماءَ! فحينئذ وَضعَ النّحو وأوّل ما رَسَمَ منه باب التّعجب."[3]

---

[1]– جلال الدّين السّيوطيّ، سبب وضع علم العربيّة، تح: مروان العطيّة، ط1. بيروت: 1988، دار الهجرة، ص31–35.

[2]– المرجع نفسه، ص39–43.

[3]– أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، ط3. الأردن: 1985، مكتبة المنار، ص21.

وتتّفق معظم الرّوايات على أنّ واضع النّحو هو أبو الأسود الدّؤليّ، في حين تختلف حول الحادثة التي تُعَدُّ سببا في وضع أبي الأسود لهذا العلم، وأوّل ما وضع منه، فالرّوايات الّتي تربط سبب وضع هذا العلم بحادثة أبي الأسود مع علي بن أبي طالب، تذهب إلى أنّ أوّل ما وُضِع منه، هو باب أقسام الكلم وباب إنّ وأخواتها، في حين تذهب الرّوايات الّتي تربط سبب وَضْع علم النّحو بحادثة أبي الأسود مع ابنته، إلى أنّ أوّل ما وُضِع منه هو باب التّعجب.

ثانيا- وضع نقط الإعراب: يُطلَق نقط الإعراب على النّقط الذي تم وضعه على أواخر الحروف لإعرابها حسب طبيعة الصّوت المنطوقة به، وهو إمّا الفتح أو الضّم أو الكسر. وواضعه أبو الأسود الدّؤليّ الّذي رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه، بطلب من زياد بن أبيه. "وقد اختلف النّاس كذلك في السّبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النّحو، فقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب عليه السّلام العربيّة، فكان لا يخرج شيئاً مما أخذه عن علي بن أبي طالب إلى أحد، حتى بعث إليه زيادٌ: اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع الناس به، وتُعرِب به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: (أنّ الله بريء من المشركين ورسولِهِ)، فقال: ما ظننتُ أن أمر الناس صار إلى هذا، فرجع إلى زياد فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير، فَلْيَبْغِنِي كاتباً لقناً يفعل ما أقول، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتى بآخر، قال: أبو العباس أحسبه منهم. فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف، فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإنْ كسرت فاجعل النّقطة تحت الحرف، فإنْ أتبعت شيئاً من ذلك غنّة فاجعل مكان النّقطة نقطتين. فهذا نقط أبي الأسود."[1]

وحَمَل هذا الصّنيعَ عن أبي الأسود تلاميذُه من قرّاء الذّكر الحكيم، وفي مقدّمتهم نصر بن عاصم وعبد الرّحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، فكلّ هؤلاء نقطوا المصحف وأُخذ عنهم النّقط، وحُفظ وضُبط وقُيِّد، وعُمل به، واتُّبِع فيه سنتهم، واقتُدي فيه بمذاهبهم. وقد أضافوا بعدها إلى ذلك عملا جليلا، وهو اتّخاذ نقط جديد للحروف المعجمة في المصاحف، تمييزا لها من الحروف المهملة، وهو الّذي سمِّي فيما بعد (نقط الإعجام).[2]

[1]- أبو سعيد الحسن السّيرافي، أخبار النّحويّين البصريّين، تح: طه محمّد الزّيني ومحمّد عبد المنعم خفّاجي، ط1. دب: 1955، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده بمصر، ص11-12.

[2]- أحمد شوقي عبد السّلام ضيف، المدارس النّحويّة، دط. القاهرة: دت. دار المعارف، ص16-17.

ثالثا– وضع نقط الإعجام: يُطلَق نقط الإعجام على النّقط الذي تمّ وضعه على الحروف المتشابهة رسما لتمييزها نطقا، وعكسه الإهمال. ويقع بهذا الإعجام والإهمال صفة للحروف المتشابهة في الرّسم؛ فيقال لمن تم نقطه منها معجما، ولمن لم يثبت نقطه منها مهملا. "وواضعه نصر بن عاصم اللّيثيّ بطلب من الحجاج بن يوسف الثّقفيّ (95هـ) والي العراق آنذاك، وهذا بعد أنْ برزت مشكلة جديدة للمسلمين –على الأخصّ من غير العرب– في قراءة القرآن الكريم، وهي مشكلة التّمييز بين الحروف المتشابهة في الرّسم، ذلك لأنّ السّليقة لم تعد تُسعِف القارئ في التّمييز بين هذه الحروف التي تتشابه في رسمها وتختلف في نطقها، فَوُضِع لها هذا النّوع من النّقط الّذي سُمِّي فيما بعد (نقط الإعجام). وبهذين النّوعين من النّقط نقط الإعراب ونقط الإعجام، تمّ للمسلمين تحصين القرآن الكريم من اللّحن الّذي بدأ يستشري على ألسنة النّاس من أهل العربيّة في القراءة."[1]

رابعا– اكتشاف الحركات الإعرابيّة (نظام التّشكيل): كان ممّا اهتدى إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) في دراسته للأصوات اللّغويّة في العربيّة، هو اكتشافه للحركات الإعرابيّة أو ما يُسمَّى بنظام التّشكيل؛ والّتي تشمل الفتحة، والضّمة، والكسرة، مُطوِّرا بذلك نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود الدّؤليّ. وقد اهتدى الخليل إلى هذا النّوع من الحركات عن طريق "أخذه من حروف المدّ صورها مصغرة للدّلالة عليها، فجعل الضّمة واوًا صغيرة في أعلى الحرف؛ لئلا تلتبس بالواو الأصليّة والكسرةَ ياءً متّصلة تحت الحرف، والفتحةَ أَلِفا مبطوحة فوقه. كما زاد الخليل عليها علامات للرّوم والإشمام، والتّشديد، والهمزة المتّصلة والمنقطعة، وكان له في النّقط والشّكل كتاب اتخذه الأسلاف إمامهم مدّة من الزّمن."[2]

تطبيق:

س1– استنادا إلى معرفتك بمختلف المراحل الّتي مرّت بها نشأة الدّراسات اللّغويّة في الحضارات القديمة، كيف تفسّر نشأة الدّراسات اللّغويّة في الحضارة العربيّة خلال هذه المرحلة، هل بفكرة القطيعة أو الأصالة أم بفكرة التّأثّر، ولماذا؟

1– محمد حسين آل ياسين، الدّراسات اللّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث، ط1. بيروت: 1980، منشورات دار مكتبة الحياة، ص54–55.

2– ينظر: أحمد شوقي عبد السّلام ضيف، المدارس النّحويّة، ص33.